مدرسة الأحزاب

ملخص
المحاضرة السادسة

المحاضرة السادسة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا)

هذه آية عظيمة، لماذا؟ لأنها تحتوي على أحكام كثيرة، ومعظمها قد يعارض إما هوى النفس أو ما اعتاد الناس عليه وما ألفوه في حياتهم.

وكما سنرى الآن حكمًا أصعب، وهو أنه من الممكن أن يتزوج الرجل زوجة ابنه الذي كان متبناه. سنرى ذلك في قصة زيد بن حارثة عندما طلق زينب بنت جحش وتزوجها النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا كان للمرة الأولى في تاريخ العرب أن يحدث مثل هذا الأمر، فكان فيه هدم لمعتقد قديم لدى العرب.

لذلك جاء في هذا السياق آية تؤكد أنه لا يوجد اختيار للمؤمن عندما يتعلق الأمر بأمر الله تعالى، فالمؤمن يرضى بكل ما يأمر الله به. لاحظ أن الأمر هنا ليس فقط الأمر الشرعي، بل أيضًا الأمر الكوني.

ما الفرق بين الأمر الشرعي والأمر الكوني؟

الأمر الشرعي هو ما يتعلق بالأوامر والنواهي، مثل: "صلِّ، صم، لا تزنِ، لا تسرق."

أما الأمر الكوني فهو الأمر القدري، أي ما يحدث بقدرة الله دون تدخل الإنسان، مثل لون البشرة، الطول أو القصر.

ولا يوجد تعارض بين رضا الإنسان بقدر الله ومحاولته لتغيير ظروفه. على سبيل المثال، إذا كان فقيرًا يسعى ليصبح غنيًا، وإذا كان جاهلًا يحاول أن يتعلم، وإذا كان ضعيفًا يسعى ليكون قويًا.

ما هو دور العقل مع الشرع؟

العقل مع الشرع له دور رئيسي، أولًا في إثبات الحكم الشرعي ذاته. أي التأكد من أن هذا النص هو من القرآن، ويتم ذلك عبر النقل كما نقل الصحابة إلينا القرآن بدقة، وهذه العملية كانت نتيجة جهد بشري. وكذلك علم الحديث الذي يعتمد على العقل في تحقيق النصوص وضبطها.

والآية ترسم لنا حدود الحرية. البعض يقول "أنا حر"، ولكن ما معنى الحرية في الإسلام؟ الحرية في الإسلام هي ألا تخرج عن شرع الله تعالى. فإذا خرجت عن شرع الله، فإنك لست حرًا.

القاعدة في الإسلام: أنت حر ما لم تعصِ الله تعالى.

إذا عصيت الله وحدك، فاعلم أنك على خطأ، وهذه ليست حرية. لا ينبغي لك أن تخالف أمر الله تعالى. وإذا عصيت أمام الناس، فقد أعطى الله للناس الصلاحية والحق في أن يتدخلوا وينكروا عليك. فلا يصح أن تقول لأحد ينكر عليك: "أنا حر."

"من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه."

لنفرق بين أمرين: الرضا بالحكم والشعور بأن هذا الحكم قد يكون مكلفًا للنفس. فطبيعة الإنسان قد تدفعه لكره بعض الأحكام، وهذا أمر معفو عنه. بمعنى أننا شرعًا نحب الجهاد، ولكن بالفطرة نحن لا نريد أن نتعرض للقطع أو الجرح أو أن يصاب جسدنا بالأذى، أليس كذلك؟

الانقياد يجب أن يكون فيما يخالف هواك، وليس فيما يوافقه.

فالخير والبركة وكل الأمور الجيدة تأتي من اتباع أمر الله ورسوله عليه الصلاة والسلام.

لاحظ هنا، عندما أقول لك انقاد، لا أطلب منك أن تنقاد لشيء سيء، بل على العكس، أنا أطلب منك أن تنقاد للخير والبركة.

النبي عليه الصلاة والسلام كان رؤوفًا رحيمًا بالمؤمنين. وقد تعلم الصحابة هذا الدرس من صلح الحديبية، الذي كان فيه ظلم من قريش، لكن النبي صلى الله عليه وسلم وافق عليه لأنه أراد الهدنة. الصحابة في البداية لم يتفهموا هذا الأمر، وكان صلح الحديبية ثقيلًا على نفوسهم. لم يعجب أحدًا منهم هذا الصلح إلا أبو بكر رضي الله عنه. وصلت مشاعرهم إلى حد أن سيدنا عمر قال كلامًا صعبًا في ذلك اليوم كما هو معلوم. ولكن بعد مرور الوقت، وبعد نزول سورة الفتح، تبينت لهم بركة صلح الحديبية، فندموا جميعًا على شكهم، وأدركوا كيف كانوا مخطئين في تفكيرهم ومعارضتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

"وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ۖ"

الحكم الهام هنا هو أنه عندما بطل التبني في الإسلام، بطل بجميع تبعاته. يعني، في الأصل لا يجوز للرجل أن يتزوج زوجة ابنه الحقيقي، فهي محرمة عليه. لكن في الجاهلية أو في بداية الإسلام، كانوا يعاملون الابن بالتبني كأنه ابن حقيقي، وبالتالي كانت زوجة الابن بالتبني محرمة على الأب بالتبني.

لكن بعدما ألغي التبني في الإسلام، أصبح لا فرق بين الابن بالتبني وأي شخص آخر. وبناءً على ذلك، إذا طلق الابن بالتبني زوجته، يجوز للأب بالتبني أن يتزوجها، ولكن هذا كان أمرًا جديدًا وصعبًا على الناس قبوله، لأنه يحدث لأول مرة في تاريخ العرب.

هذا الأمر سيكون شديد الصعوبة على المجتمع العربي في ذلك الوقت، لأنهم كانوا يعتبرون أن الزواج بزوجة الابن بالتبني أشبه بالزنا، تمامًا كما لو تزوج شخص بواحدة من محارمه. بالنسبة للعرب، كان هذا يعتبر انتهاكًا كبيرًا للتقاليد.

لذلك، اختار الله النبي صلى الله عليه وسلم ليكون أول من يطبق هذا الحكم، لأنه الوحيد الذي يستطيع تحمل تبعات هذا الأمر. وما هي تبعات هذا الأمر؟ تبعاته صعبة جدًا جدًا، لأنها ستفتح الباب للمنافقين للحديث عن المسلمين والطعن في النبي صلى الله عليه وسلم. كذلك، ستفتح المجال للكفار وكارهي الإسلام للسخرية من المسلمين والتشكيك في النبي. ستصبح هذه المسألة شبهَة يستخدمها المنافقون والكفار لتشويه صورة الإسلام، قائلين: "انظروا إلى نبيهم، لقد تزوج زوجة ابنه"، ويزعمون أنه ارتكب شيئًا محرمًا، بينما الحقيقة هي أن هذه الزوجة لم تعد محرمة بعد إلغاء التبني في الإسلام.

المهم أن النبي صلى الله عليه وسلم زوّج زينب بنت جحش، ابنة عمته أميمة، لزيد بن حارثة. وعلى الرغم من أن كلا الزوجين كانا صالحين، إلا أن هذا لا يعني بالضرورة أن الزواج سيكون ناجحًا. فالزواج لا يعتمد فقط على الصلاح أو التدين، بل هناك جوانب أخرى مثل الطباع، الألفة، والقبول بين الزوجين. ومع مرور الوقت، بدأت تظهر مشاكل بين زيد وزينب، واستمرت الحياة الزوجية في التوتر.

كان زيد يأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم يشكو له من الخلافات بينه وبين زينب. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحاول إصلاح الأمور بينهما، فيقول له: "أمسك عليك زوجك واتق الله." رغم أن النبي كان يعلم بالوحي أن هذه المشاكل ستنتهي بالطلاق، إلا أنه استمر في محاولة الإصلاح. هنا جاء العتاب الإلهي للنبي صلى الله عليه وسلم، حيث قال الله له: لماذا تقول له "أمسك عليك زوجك"

مع أنك تعلم أن الطلاق قادم وقد أوحي إليك بذلك؟ لماذا تؤخر هذا البلاغ؟

"وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ"

كان هذا عتابًا شديدًا من الله للنبي صلى الله عليه وسلم. حتى أن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت إن هذه الآية من دلائل النبوة، وأكدت أنه لو كان النبي صلى الله عليه وسلم كاتمًا لشيء من الوحي، لكان كتم هذه الآية.

"فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا"

أي أن زيد بن حارثة أنهى علاقته بزينب، وتم الطلاق بينهما، وانتهى الأمر.

أمر الله تعالى أن يتزوج النبي صلى الله عليه وسلم زينب مباشرة بعد طلاقها من زيد. لذلك أرسل النبي إلى زينب ليخبرها أن الله أوحى إليه بالزواج منها. فقامت زينب بصلاة الاستخارة، ورغم أنها كانت موافقة، أرادت أن تتأدب مع الله وتطلب منه التوفيق. وبعد الاستخارة، وافقت ودخل بها النبي صلى الله عليه وسلم. تميزت زينب بأن النبي صلى الله

عليه وسلم تزوجها بدون عقد، بدون شهود، وبدون ولي، لأن هذه الزيجة تمت بأمر مباشر من الله تعالى.

الحكم في هذه الآية جاء لتوضيح أنه **"لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ."** أي أن المؤمنين لن يشعروا بالحرج في الزواج من زوجات أبنائهم بالتبني بعد أن ألغي التبني في الإسلام. **"أدعيائهم"** هنا تعني الأبناء المتبنين.

"مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ"

أي لا يوجد عيب أو حرج على النبي صلى الله عليه وسلم فيما أمره الله به. فلا يحق لأحد أن ينكر عليه أو يعيبه على هذا الحكم الإلهي، إذ لا حكم من الله يعاب.

"سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا."

انتهى الأمر وهذا هو قدر الله. هذه الآية، على الرغم من قصرها، تحمل في طياتها مصدرًا كبيرًا لسعادة الإنسان. عندما يحدث للإنسان شيء من قدر الله ويقرأ هذه الآية، يشعر بالراحة. لماذا؟ لأنه يتخلص من أحد أسباب التعاسة الكبرى، وهو الاعتقاد بأن المشكلة التي حصلت كان من الممكن ألا تحدث. فيقول الشخص في قلبه: "لو كان كذا، لكان كذا."

"الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا."

نستنتج من هذه الآية أن من واجب الجميع أن يبلغوا رسالات الله ولا يخشوا أحدًا إلا الله سبحانه وتعالى. هذه الآية من أقوى الدوافع التي تحث على العمل في الدعوة إلى الله، لأنها تذكرك بأن الله وحده هو الكافي لك.

الله سبحانه وتعالى يكفيك وييسر لك الأمور بطرق قد لا تتوقعها. قد تذهب للدعوة وتشعر بالخوف أو التردد، ولكن تجد قبولًا من الناس وتيسرًا في الأمر. فتقول في نفسك: "الحمد لله أنني تكلمت، كنت خائفًا ولكن الله كفاني ورزقني القبول."

"مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ."

في هذه الآية يذكر اسم النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وكما قلنا من قبل، الله عادة لا يناديه باسمه مباشرة بل بعبارات تشريفية مثل "يا أيها النبي." هنا لا يُعد ذكر اسم النبي محمد نداءً، بل هو جزء من سيرة الرسالة، للتأكيد على أنه رسول الله وخاتم الأنبياء.

لاحظوا أن كل هذه الآيات تعبر عن إكرام وتعظيم للنبي صلى الله عليه وسلم، وكلما ذكر اسمه أو تحدث عنه القرآن، كان ذلك تكريمًا له.

الله سبحانه وتعالى أنزل الحكم في القرآن لتأكيد هذه القضية المهمة.

في معنيين هنا:

1. **المعنى الأول:** أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس أبًا لأحد من الرجال. وهذا صحيح، فقد مات جميع أبنائه الذكور في حياته، ولم يكن له أبناء ذكور على قيد الحياة.

2. المعنى الثاني: وهو الأهم، أن الآية لا تتحدث فقط عن أبنائه الذين هم من صلبه، بل تؤكد على مسألة زيد بن حارثة، الذي كان يُعتبر ابنه بالتبني. الآية تُثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس أبًا لأي رجل حتى من المتبنين.

آخر نبي، وهنا ذكرت الآية "خاتم النبيين" ولم تقل "خاتم المرسلين".

لماذا؟ لأن النبوة أوسع من الرسالة. فكل رسول نبي، لكن ليس كل نبي رسول.

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا."

هنا يُؤمر المؤمنون بأن يتذكروا الله بكثرة، مما يدل على أهمية الذكر في حياة الإنسان. ينبغي للإنسان أن يكون مشغولًا بالذكر باستمرار، لأنه يمثل قوته وسلاحه في مواجهة التحديات.

الله سبحانه وتعالى اختار التسبيح تحديدًا، لأنه يعني تنزيه الله عن كل نقص وعيب. فهو سبحانه لا يُعاب في أسمائه أو صفاته أو أفعاله أو أحكامه.

"وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا."

ما معنى "بكرة"؟ تعني في أول النهار، أما "أصيلًا" فتعني في آخر النهار. وهذا يشير إلى أهمية الذكر في كل الأوقات، سواء في بداية اليوم أو نهايته.

"هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا."

عندما نقول إن الله سبحانه وتعالى يصلي على الناس، فإن ذلك يعني أنه يذكرهم، ويرفع قدرهم، ويرحمهم، ويهديهم. كل هذه المعاني تتضمن معنى أن الله يُصلي على إنسان. أما الملائكة، فإنهم يصلون بمعنى أنهم يطلبون من الله ذلك، فيقولون: "اللهم صل على فلان"، أي: "يا رب، اذكره وارحمه".

نحن نطلب من الله أن يُثني على الشخص ويرفع قدره، ويعطيه المقام المحمود. وهذا هو معنى الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم. عندما يقول الله إنه يصلي على النبي، فهذا يعني أنه يرفع قدره، ويعلي شأنه، ويعلي ذكره في الملأ الأعلى.

"تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ."

في يوم يلقون الله، سيكون تحيتهم "سلام"، مما يعني أن الله سبحانه وتعالى يسلم عليهم. والملائكة أيضًا تسلم عليهم، وتقول لهم: "سلام عليكم بما صبرتم." وهذا يعني أنهم يسلمون على بعضهم البعض، فيعبرون عن تحيتهم وتقديرهم في ذلك اليوم العظيم.

"يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا."

كلمة "شاهدًا" لها معنيان: الأول، شاهد على التوحيد مثل باقي الرسل؛ والثاني، شاهد على الناس في أفعالهم وأقوالهم.

"وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا." (46)

"داعيًا إلى الله بإذنه" تعني أن الله أذن لك بالدعوة، إذ أذن لك شرعًا لأن الله أمر بالدعوة، وقدرًا لأنه اختارك لهذه المهمة العظيمة.

"وَسِرَاجًا مُنِيرًا."

السراج يضيف دفئًا، وهذا يعني أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء بالنور وبالدفء. دفء الإيمان، وطمأنينة الشريعة، وسكينة الإيمان، فهو "سراج منير" يهدي الناس إلى الحق ويضيء دروبهم.

أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.